

الكاتب : ياسر عبد العزيز

جريدة : المصري اليوم

التاريخ : 27 ديسمبر 2009

الصفحة : 21

العدد : 2023

السنة : 6



ياسر عبد العزيز

الرابعون من «تجلى العذراء»

ريح كثيرون من «تجلى العذراء الأخير فوق قباب القناتس» في مصر؛ فالكنيسة الأرثوذكسية عززت الإيمان القبطي، وعوقت الهجمات التبشيرية البروتستانتية، وقللت من زخم بعض عمليات التحول إلى الإسلام، وحولت الحديث عن خلافة البابا وتساعد عمليات تغيير الملة والمطالبات بتخفيف القيود على الزواج الثاني إلى خطاب روحاني مبهج، يقر بإعجاز خارق؛ فيكرس الإيمان، ويخلق الرضا، ويعمق الثقة في أن.

الحكومة أيضا ربحت ربحاً كبيراً؛ فظهور «المبجلة المصطفاة مريم» أفضل ما يمكن أن يفهمه الفتن والعداوات بين المسلمين والمسيحيين، وهو تأكيد بليغ على أن عنصرى الأمة يمكن أن يتعايشا في سلام، خصوصاً أن السيدة العذراء، التي يجلها المسلمون، ويقررون بفضيلتها، والتي تردد ذكرها في القرآن، هي من تظهر في هذا الوقت الحرج، وليس غيرها من القديسين المسيحيين الذين ربما لا يعرفهم المسلمون أو لا يقدرونهم حق التقدير.

مكاسب الحكومة من «ظهور العذراء» لا تقتصر على لجم الفتن المتصاعدة في أكثر من بقعة بمصر فقط، ولكنها تمتد كذلك إلى صرف انتباه المجال العام عن العديد من القضايا الحساسة والحرجة. فلا شك أن انشغال الجمهور بظهور «أم التور» أفضل كثيراً من قراءة تصريحات البرادعي أو المقالات التي كتبت في تأييد ترشيحه للرئاسة، أو مناقشة ضعف المنظومة الصحية في مواجهة «أنفلونزا الخنازير»، أو دستورية قانون الضرائب العقارية الجديد، أو العجز عن مواجهة كارثة رى المزروعات بمياه الصرف واختلاطها بمياه الشرب في مناطق عديدة، أو الحديث عن هرب هاني سرور، والتعويض الذي سيُدفع لسياج، وعودة «أجريوم» تحت غطاء جديد، واتهام السلطات المصرية بالتعتيم على معلومات مهمة في شأن حادث سقوط طائرة شرم الشيخ ٢٠٠٤.

«ظهور العذراء» يجب أن يكون مصدر سعادة للحكومة، فالجمهور وبعض النخب ووسائل الإعلام كلهم سيهتمون كثيراً بهذا الحدث بعيداً عن مناقشة ما يحدث على الحدود الشرقية فيما يتعلق ببناء الجدار الفولاذي، بما يقتل من حدة الانتقادات والاعتراضات على بنائه، خصوصاً أن الحكومة بدت عزلاء من أي استراتيجية إعلامية للتعامل مع حدث بهذا الحجم، حيث عكست أكبر قدر ممكن من افتقار الرؤية والقدرة على الاتصال الفعال لشرح سياساتها، فضلاً عن تبريرها والترويج لها.

الإعلام الراشح أيضاً استفاد استفادة كبيرة؛ فقد وجد قصة مفعمة بالحياة، ومتشعبة في أبعادها، وممتدة في تطوراتها. وسهلة في استدعاء مصادرها، ومثيرة في تفجيرها للتحافض والصراع والجدل، وثيرة في استخدامها للمواطف والشحن المتبادل، وقادرة على جر الجمهور من أكثر أعصابه عرياً وحساسية.. مشاعره الدينية.

باتمو الكشوى والفتار والترمس وثمار البطاطا، وأصحاب المقاهي والمراجيح، وبعض هواة التحرش الجنسي واللصوص، جميعهم أحرزوا مكاسب معتبرة، مستفيدين من تجمع عشرات الآلاف من المسيحيين والمسلمين السيماء ذوي المشاعر النبيلة، الذين أمضوا الليالي الباردة الطويلة في انتظار ضوء يلهم أو حمامة تطير، فتطيب خواطرهم المكسورة أو يتدعم إيمانهم وتكرس قناتهم فيما هم عليه، أو تزداد قدرتهم على مواجهة واقع مأزوم ربما تعجز عن تحمل ضغوطه الجبال.

لا يمكن لعامل أن يعتبر أن «تجلى العذراء فوق القباب» كان محصلة مباشرة لاجتهاد الرابعين من ظهورها وتديرهم أو تنسيقهم؛ فذلك مما يرفضه المنطق، ويعوزه الدليل، ويقتضد اللياقة والاحترام، لكن ما يجب أن يراه العاقل أيضاً في هذا الحدث المهم أن هؤلاء الرابعين ربما استفادوا مما حصل عبر السكوت أو الانخراط أو التأييد أو غض الطرف أو امتطاء الحادثة لتحقيق أهداف مؤجلة عزت على التحقق في ظل معطيات غير موثوقة.

لا يجب أن يكون «ظهور أم السيد المسيح» مدعاة لأي حق من أي نوع؛ فهي إذ تظهر فعلاً إنما تدعم القيم الروحية والإيمانية، وتكرس مفاهيم التضحية والصبر والنقاء والورع، وتفتح الباب أمام المذنبين والمترددين والمتورطين والشاردين والساهين للعودة إلى الرشيد والطريق الصبح، لكن ما يبعث على القلق أن يكون ظهورها صنعة أو ادعاء أو مبالغة خلقت في الخيال؛ إذ ستكون عواقب الصدمة على المؤمنين وخيمة، بل قد تمس فكرة الإيمان ذاتها ويوجد البعض طريقاً إلى النيل منها.

لطالما تلاعب تجار وساسة رجال دين وإعلام بعواطف الناس الدينية وتكسبوا منها أموالاً ومصالح وتفوزاً أو اتقوا بها مخاطر ومطالبات وانتقادات. والواقع أن هذا الأمر لم يقتصر على الجنوب دون الشمال، ولم ينشط بين الفقراء ويترك الأثرياء، ولم يتوقف عند العصور الوسطى دون أن يمتد إلى أوقاتنا الراهنة الزاهية بالحضارة والعلم ونفاذ وسائل الاتصال، لكنه غطى تلك المساحات والتهيئات كلها؛ لكونه يتصل بظاهرة ساطعة لم تتغير على مر الزمان، تتصل بعلاقة الإنسان بخالقه، ودور الدين الحاكم في تلك الحياة.

تجلت العذراء أو لم تتجل، لا يجب أن يكون هذا مجال السؤال؛ فالعذراء تظهر في نفوس المؤمنين كل لحظة على أي حال، وهي بببوتيتها ونقاها وقدرتها على إلهام الناس دائمة التجلي والحضور والأثر، بحيث لا تحتاج، على الأرجح، أن تومض صورتها بين القباب، أو أن يشهد برؤيتها مسلم أو بروتستانتي أو كاهن، ليقتنع المؤمنون بقديستها، ويثبتوا على ما هم عليه، وتتميز حظوظهم في المعارك الدينية الحمقاء، وتجنن الحكومة والتجار والكهنة الأرباح.

